هل اقترب الطوفان..؟

ما يجرى الآن فى روسيا من إصلاحات ليس إلا عملية تخلٍّ تدريجى عن الماركسية، وعن أفكار خاطئة أعدم فى سبيلها الملايين (خمسة ملايين فلاح باعتراف ستالين نفسه، وذلك فى أيام ستالين وحده).

وعمليات التعرية مستمرة.. ما فعله خروشوف فى تعرية ستالين.. ثم ما فعله بريجنيف فى تعرية خروشوف وما يفعله اليوم جورباتشوف بتعرية برچنيف.. والمسلسل مستمر.

والتنازلات التى قدمها جورباتشوف، والتى حاول بها إقامة الجسور مع أوربا وأمريكا، ومع الجانب الديمقراطى من العالم تنازل فيها الرجل عن أحشاء النظرية.. وما تبقى الآن أشبه بيسار يمينى أو يمين يسارى.. نوع من المحاولة للوصول إلى وسط معتدل، أو نوع من المصالحة لا يعجب الجانب المتشدد المحافظ من الماركسيين.

ويقول هؤلاء إن استمرار هذه التنازلات سوف يؤدى

بالأحزاب الشيوعية إلى أن تفقد رخصة وجودها ومبرر ثوريتها باتخاذ هذا الوسط المائع بين اليمين واليسار وفى النهاية سوف تفقد هويتها ثم لا تكسب فى مقابل هذه التنازلات شيئًا.. لأن هواة الديمقراطية والانفتاح لن يلتمسوهما فى حزب شيوعى، ولا فى زعيم ماركسى مهما حمل من لافتات، ومهما رفع من رايات، وإنما سوف يطلبونهما من البر الغربى.

والملاحظة صحيحة، فالتاريخ الأسود للشيوعية فى جميع الأقطار والأمصار كفيل بصرف الأنظار عن هذه الدعاوى.. والتغيير منعكس سلبيا على جميع الأحزاب الشيوعية فى أوربا فهى تفقد شعبيتها وتفقد مقاعدها فى جميع البرلمانات.. وهى تتحرك اليوم بلا فكر وبلا فلسفة وبلا خلفية.

ومنظر الشيوعيين وهم يتسولون شعارات الانفتاح والديمقراطية والحرية الدينية ويرفعون لافتات الاعتدال بحثا عن أرض جديدة يقفون عليها بعد الخسف الأرضى الذى أصاب أفكارهم.. هو منظر مأسوى.. والراية الحمراء التى أصبحت الآن راية بمبية، والمطرقة والسندان وهما ينزلان على رأس ماركس وأنجلز وليس على مخ الرأسمالية الغربية.. أشبه بلوحة كاريكاتورية.

والشيوعية كفكر الآن انتهت.. ولم يبق منها إلا قوة عسكرية تمارس عملها كدولة كبرى إمبريالية، وليس كفكر أو فلسفة أو

دعوة (والمثال أفغانستان).

ولم يبق للدول الصغرى التى تدور فى الفلك الاشتراكى ولا للأحزاب الأوربية الشيوعية الصغيرة إلا دور العميل.

والفعل الذى تبقى لليسار فى العالم هو إثارة الاضطرابات، وتمويل الانقلابات، ونشر الفتن، ودفع عجلة الإرهاب فى كل مكان دون ما فكر أو فلسفة.. والمشهد تاريخيًّا.. هو مشهد غروب كامل للفكر الماركسى.. بعده ليل دامس حالك بإذن الله.

ومما يستوقف النظر أن نقرأ لجورباتشوف منذ شهور خطبة فى طشقند (٥٠ مليون مسلم) يقول فيها إنه لابد من تصعيد الحملة لنشر المبادئ الإلحادية.. ثم نراه منذ أسابيع يدعو رجال دين لحضور مؤتمر المائدة المستديرة فى موسكو..

والتحول كبير.. أكبر من مائة وثمانين درجة.. من النقيض إلى النقيض.. منتهى سعة الصدر.. ومرونة مذهلة..

هل نحن أمام استراتيجية جديدة أم تكتيك أم ذكاء أم قناعة فلسفية؟! ربما كل هذه الأشياء..

ولكن ما حدث كان لابد أن يحدث وجورباتشوف لم يخرج من تحت قبعته أرنبًا، ولم يلعب لعبة حُواة.. وإنما خريطة الواقع هى التى تغيرت، والمسرح السياسى تغير.. والاقتصاد الاشتراكى الذى انهزم بالضربة القاضية أمام الاقتصاد الغربى، والإنتاج

الاشتراكى الذى تخلف وراء الإنتاج الرأسمالى، والرأى العام الداخلى الرافض لسياسة القهر، والذى تعاظم فى الدول الشرقية وأصوات رجال أمثال زخاروف التى ارتفعت لتصل إلى الشاطئ الآخر من العالم.. كل هذا كان وراء هذا التحول.. وكان لابد من تغيير قبل أن تتشقق الأرض وتحدث هزة زلزالية لا تحتملها نظم أصابتها الشيخوخة المبكرة وتصلب الشرايين.

وما فعله جورباتشوف كان عملية إنقاذ وإسعاف عاجل، فقد أسرع ليلتقى بالعاصفة فى منتصف الطريق، ضاربًا عرض الحائط بجميع الفلسفات والنظريات. فقد أدرك الرجل عجز اللغة الماركسية عن التخاطب المفهوم مع العالم، وعجز الأبجدية اللينينية عن الحياة فى عصرنا.. فالعمال اليوم غير العمال.. والفلاحون غير الفلاحين.. والمشاكل غير المشاكل.. والتناقضات غير التناقضات التى تحكى عنها كتب المراجع والمتون التى تعود أن يرجع إليها الشيوعيون التقليديون... والعالم اليوم غير عالم ماركس وأنجلز، والاستمرار فى تطبيق كلام ماركس وأنجلز على عالم اليوم هو تخلف عقلى.

والصراعات اليوم تجرى على محاور جديدة وبانطلاقات مختلفة وبدوافع متعددة ومتشابكة، ولم يعد من الممكن تبسيط كل شىء إلى أنه معركة بين عمال وأصحاب رءوس أموال أو بين فلاحين وإقطاعيين.

انتهت الأكليشيهات القديمة وتغير المسرح.

وكمثال فى بلادنا.. لو جرى التأميم على كل ما تبقى من قطاع خاص، ولو نزعت جميع رءوس الأموال الخاصة ووزعت بالتساوى على الخمسين مليون مواطن فلن يثمر هذا التوزيع إلا المساواة فى فقر عام دونما حل لأزمات الإسكان والصرف الصحى والطرق والكهرباء والطاقة والتأمين الصحى والتعليم، وهى أزمات فى حاجة إلى مليارات ومليارات، فوق المائة مليار.. ولا حل لها سوى العلم والعمل والسهر والإنتاج، وإلى تدفق الاستثمارات، وإلى النهضة بالسياحة، وإلى شق الأنهار، وتفجير الآبار، واستصلاح الصحارى واستخراج الثروات المعدنية، وإلى أبحاث ومختبرات، وجميعها فى حاجة إلى رءوس أموال، فكيف نبدأ بالعدوان على رءوس الأموال؟! إن الصيغة الماركسية لم تعد تصلح.

إن العلم هو الثورة الجديدة التى تستطيع اليوم أن تصنع جبال الزبد وأهرامات القمح وأنهار العسل واللبن وليس الانقلابات الشيوعية.

ورايات المطرقة والسندان لم تستطع أن تفعل شيئًا لدول أمريكا اللاتينية الفقيرة، ولا لأنجولا، ولا لموزمبيق، ولا لكوبا، ولا للحبشة التى تموت جوعًا.

وإذا أخذنا منطقتنا كمثال وما يجرى فيها من صراع وحرب

شبه عالمية فى الخليج، وتجارب لكافة الأسلحة الشرقية والغربية.. هل يرى القارئ فيما يجرى صراعا بين الكادحين والشغيلة وبين رأس المال المستغل؟ هل يرى فيما يجرى صراعًا طبقيًّا؟ أم أننا أمام عوامل جديدة متشابكة متعددة.. عنصرية وعقائدية وتوسعية وصهيونية؟ وبرغم اشتباك الأسلحة الأمريكية والروسية على المسرح، وتورط قوى الشرق والغرب فى أوحال الخليج فإنَّ ما نراه ليس صراع يمين ويسار، ولا تناقضًا بين فلاحين وإقطاع.

وما يجرى فى لبنان لن يصلحه حزب جنبلاط الاشتراكى.

إننا أمام لون جديد من الفتن.. لون معقد متشابك تشترك فيه مئات الأيدى الظاهرة والخفية وتتداخل فيه مئات العوامل وربما كان الفقر والغنى آخر تلك العوامل وليس أولها.. ألم تكن لبنان أكثر الدول رخاء، وأكثرها ترفًا وأكثرها وفرة؟ فلمَ حدث ماحدث؟؟

وبرغم كثرة الضباب وكثرة الأيدى التى تشعل النار فى المنطقة فإن الضباب لن يطول تراكمه.. وسوف ينقشع أخيرًا ويتبلور فى صراع إسرائيلى عربى، برغم محاولة جميع الأطراف تجنب هذا الشكل من الصراع.. وبرغم محاولة إسرائيل أن تغسل يديها مما يحدث وبرغم محاولة الكل تمييع المواجهة وتأجيلها فإنها قادمة..

فإسرائيل هى التى أدخلت الإرهاب إلى المنطقة .. وهى التى

زرعت أسبابه وهى التى تسهر على تنميته وتكاثره.. وهى التى زرعت أسباب التمزق العربى الموجود، وهى التى تسهر على دفع التمزق إلى غايته.. وهى ترفع راية السلام والاستقرار، ولكنها ضد كل نوع من الوحدة والتصالح والتفاهم والاستقرار.

وقد أدى وجودها المستفز وسياستها التوسعية وضربها المدن والقرى بالقنابل وإحراقها للمنازل إلى استقطاب دينى يتنامى باستمرار.. فرأينا التيارات الإسلامية على الجانب الآخر تنمو بدرجات متفاوتة من التطرف والاعتدال، وهو رد طبيعى ودفاع فطرى عن النفس ضد قوة صهيونية تغرس مخالبها فى المنطقة، وتغوص فى لحمها شيئا فشيئا.

وغدًا سوف نرى استقطابًا عقائديًّا دينيًّا لا مكان فيه ولا مستقبل ولا فعل لليسار التقليدى، ولا دور للأحزاب الشيوعية، فالتناقض القادم لن يكون تناقضًا طبقيًّا بين الفقراء والأغنياء، وإنما تناقض عقائدى بين الكتلة الصهيونية والكتلة الإسلامية.

ولو أنصفت الأحزاب الشيوعية الموجودة لحلت نفسها من اليوم واستراحت، فالمستقبل القريب ليس مستقبلها ولا دور لها فيه.. وإنما المعركة ستكون بين حركة عربية إسلامية متنامية وبين إسرائيل، والصراع القادم دينى عقائدى قلبًا وقالبًا.

وما نجحت فيه إسرائيل منذ أربعين عامًا فى إلهاء المنطقة

وإغراقها بالحروب الجانبية والموجات الإرهابية والفتن والخلافات لن يستمر إلى الأبد.

والقنابل الذرية الإسرائيلية التى تخوفنا بها إسرائيل هى أسلحة غير قابلة للاستعمال لأن آثارها إذا ألقيت سوف ترتد وبالا على إسرائيل نفسها فى أقل من ساعات.. فهى مجرد إرهاب وتخويف ساذج لن يخاف منه أحد.

ولن يقبل العالم بعد حادث تشرنوبل أى تلوث للبيئة أو أى لعب للصغار بجر رجل الكبار.. فالصراع العربى الإسرائيلى سيظل صراعًا محليًا فى فنجان الشرق الأوسط، وسيظل مواجهة محدودة بالأسلحه التقليدية، وأى مقامرة من إسرائيل لتوسيع نطاقه إلى أبعاد عالمية ستكون فيه نهاية إسرائيل ذاتها.

وإلى الآن مازالت إسرائيل بمنأى عن هذا المصير، مستترة وراء ما تمارسه من مكر وتآمر، متخفية وراء دعاوى السلام والأمن والاستقرار، فى حين أن مخالبها تعمل ليل نهار فى تمزيق المنطقة.. ولكن إلى متى..؟

إلى ما تبقى من عمر الأسد..

وإلى ما تبقى من حياة القذافى..

ربما شهور.. وربما سنوات قليلة.. هى مجرد ثوان فى عمر التاريخ.

إن المستقبل مرجل فوار من الاحتمالات.. والأيام القادمة حبلى بالمفاجآت، والمكر الصهيونى والمكر الأمريكى ليس هو المكر الوحيد الذى يشكل التاريخ، ولكن الله أسرع من الكل مكرا..

﴿ويمكرون ويمكرُ الله، والله خير الماكرين﴾ (٣٠ - الأنفال).
﴿إنهم يكيدون كيدًا، وأكيد كيدًا﴾ (١٥ - ١٦ الطارق)

والإمهال هو سُنة الله التى لا تتخلف فى التعامل مع المجرمين، فهو يمد لهم فى الحبل حتى يأمنوا ثم يشنقهم بنفس الحبل الذى يجدلونه لشنق الآخرين.. واقرءوا معى التاريخ.

ماذا بقى من زحف التتار؟ وماذا بقى من الغزو الصليبى؟ وماذا بقى من الإمبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس؟ وماذا بقى من فتوحات نابليون.. ومن غزوات هتلر؟

إن هى إلا طرفة عين بالنسبة للزمن اللانهائى ثم ينقلب العالون أسفلين والأسفلون عالين.

وإذا كانت إسرائيل الآن تجد ظروفًا مواتية لتعلو على أنقاض الخراب الذى اشتمل المنطقة العربية، وغبار المعارك التى تلفها، والخلافات التى تنهكها، فتلك جميعًا أعراض مرحلة.. وسوف تمر المرحلة مثل كل ما مر من مراحل التاريخ.

وإذا كانت إسرائيل تبنى مخططها وآمالها على أنها سوف

تشعل الفتنة الطائفية فى مصر، وسوف تقسمها إلى أسيوط نصرانية، وفيوم إسلامية، وقاهرة شيوعية، فإنها تحلم.. لسبب بسيط، أن المثال اللبنانى المرعب للفتنة الطائفية التى احترق فى نارها المسلم والمسيحى، والتى يراها كل مصرى عيانًا بيانًا سوف تشل أى يد نصرانية أو مسلمة تحاول بوعى أو بجهل أن تشعل الفتنة،ولسبب آخر أنه لا يوجد بمصر جيوش، ولا ميليشيات، وإنما جيش واحد وقوة واحدة مركزية وحكومة واحدة، ولسبب أهم هو تراث إسلامى عريق من المودة يضم فى عباءته الفضفاضة كل الأديان وكل الملل والنحل فى حدب وعطف.. وإننا جميعًا كأغلبية مسلمة نعيش فى وفاق وتسامح مع إخواننا القبط منذ ألف عام، ونعمل بما قاله محمد عليه الصلاة والسلام:

«استوصوا بالقبط خيرًا فإن لكم فيهم رحما وذمة».

وقوله عليه الصلاة والسلام:

«من آذى ذميا فأنا خصيمه يوم القيامة».

فنحن إخوة وأبناء أسرة واحدة، ونشرب من نيل واحد، ونأكل من رغيف واحد، ومع ذلك فإن إسرائيل سوف تحاول، والمخابرات الأمريكية سوف تحاول معها بلا جدوى،وسوف تظل إسرائيل جسما غريبًا مرفوضًا ينمو فى بحر من العداوة العربية.. وتاريخيا لا أمل لهذا الجسم الغريب فى نمو أو استقرار، وهو مقضى عليه بأن ينفصل ويذبل ويسقط.

ولم تكن كامب ديڤيد أكثر من هدنة والتقاط أنفاس واختبار للنيات. وإسرائيل بعدوانها المستمر والمتكرر تؤكد كل يوم سوء النيات، وتكشف كل لحظة عن سوء الخبايا.. وهى قد أساءت استخدام الهدنة، واستغلت اليد التى امتدت لها بالمصالحة أسوأ استغلال، وعدوانها واستراتيچيتها منذ كامب ديڤيد تنبئ عن عدو حقيقى يضمر خرابًا لا أمانًا، وحربًا لا سلامًا.. وهى مع كل قنبلة تلقيها على لبنان تحفر لنفسها قبرًا ومع كل مستوطنة تزرعها فى الضفة تزرع معها نارًا.

والجسم العربى المريض لن يظل مريضًا.

ولن تنجح الفتن الطائفية فى تحويل مصر إلى لبنان، فالحكومة المركزية فى مصر كفيلة بقطع رءوس الفتنة واستئصال أى ميليشيا من أى لون قبل أن تولد، وقبل أن تنمو لها جذور.. والرعب اللبنانى كفيل بتحصين كل مسلم وكل مسيحى ضد أى تطرف..

ولن تكون تلك الأحداث أكثر من تطعيم يزيدنا حصانة بين وقت وآخر ومع الوقت سوف يتبلور الوعى فى المنطقة، وسوف يعرف الجميع من هو العدو.. وما هى البؤرة الحقيقية التى تنتشر منها السموم وتتوالد فيها الميكروبات.

وإلى أن يكتمل هذا الوعى علينا أن نركز حول هدف واحد، ليس الحرب، وإنما استرداد عافيتنا الاقتصادية، ودفع عجلة

الإنتاج، ومضاعفة الموارد، ومحاولة اختراق الخلافات العربية بحثًا عن أرضية مشتركة للتفاهم، ومحاولة بناء المركب العربى قبل أن يطم الطوفان.